منَ البلاغة العرَبيّة

أسلوب الكناية

د. عبده عبد العزيز قلقيله

الكناية ـ كما عرفها القزويني ـ «لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك (فلان طويل النجاد) أي طويل القامة و (فلانة نئوم الضحى) أي مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات، وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش وكفاية أسبابه، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك.

ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم في الضحى من غير تأويل (من غير صرف اللفظ عن حقيقته)، فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه، فإن المجاز ينافي ذلك؛ فلا يصح في نحو قولك (في الحمام أسد) أن تريد معنى الأسد من غير تأول».

(يقصد القزويني امتناع أن تقصد أسداً حقيقياً، بل لا بد أن يكون المقصود أن في الحمام رجلاً شجاعاً استعرت له كلمة أسد)(١).

ولتوضيح كلام القزويني في الفرق بين الكناية والمجاز نقول:

إنهما يشتركان في ضرورة وجود قرينة تدل على المعنى المقصود من كل منهما أي على المعنى الكنائي في الكناية، وعلى المعنى المجازي في المجاز، لكن ثمة فرقاً جوهرياً بين القرينتين، وفي هذا الفرق الجوهري بين القرينتين يكمن الفرق بين الكناية والمجاز.

فالقرينة في الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي وهو المعنى المباشر للعبارتين (طويل النجاد) و (نئوم الضحى) ولأمثالها من الأساليب الكنائية.

أجل إن مراد المتكلم ابتداءً إنما هو المعنى الكنائي للعبارة، أي المعنى الثاني لها وهو المعنى اللازم عن معناها الأصلي. لكن ليس ما يمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى الكنائي، وبعبارة أخرى نقول:

إن قرينة الكناية سهلة ومتسامحة ومرنة، وهي لذلك توافق على ازدواجية الأداء وثنائية المعنى. في المثال (هند نئوم الضحى).

المعنى المباشر أنها تنام وقت الضحى أي إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. وهذا المعنى المباشر وهو المعنى الأصلي للعبارة غير مقصود لذاته، بل لما يلزمه ويترتب عليه من معنى كنائي هو أنها مترفة ومخدومة، وهذا المعنى الكنائي هو المقصود لذاته من أول الأمر، لكن لا بأس مع قصد المعنى الكنائي ابتداءً من قصد المعنى المباشر معه.

وتجدر الإشارة إلى أن الكناية تصح ولو لم يكن المعنى الأصلي للفظ المكنى به ذا وجود خارجي.

نتحدث عن المضياف الذي لا يطبخ لضيوفه وإنما يشتري لهم الطعام من المطابخ الخارجية فنقول (فلان كثير الرماد) كناية عن كرمه، ولا رماد هناك.

كما نقول لطويل القامة الذي لا نجاد له لأنه لا سيف عنده (طويل النجاد).
وكذلك تصح الكناية في حالة استحالة المعنى الأصلي، وأكثر أمثلة الكناية عن نسبة من هذا النوع، نقول: (المجد ملء ثيابه) كناية عن نسبة المجد إليه، والمعنى الأصلي مستحيل لاستحالة حلول المجد ـ وهو أمر معنوي ـ في الثياب بمعناها الحقيقي.

أما القرينة في المجاز ـ أيِّ مجاز ـ فإنها تمنع منعاً باتاً إرادة المعنى الحقيقي وإلا اختلط الكلام وتداخل، وانبهم مقصود قائله منه فلم نتبينه، ويكون التعبير قد فقد خاصة التواصل وهي وظيفته الأصلية.

تقول: **(معنا في العمل عين وثعلب).**

وفي قولك هذا مجازان، علاقة الأول الجزئية، أطلقت العين وأردت الجاسوس مجازاً مرسلاً، وعلاقة الثاني المشابهة، صرحت بالثعلب في مكان زميلك المكار، استعارة تصريحية أصلية مطلقة(٢) .

والقرينة في هذين المجازين هي (معنا في العمل) وهي مانعة منعاً قاطعاً من إرادة المعنى الحقيقي للعين، ومن إرادة المعنى الحقيقي للثعلب.

أقسام الكناية

والكناية ثلاثة أقسام:

(١) كناية عن صفة أي عن معنى.

(٢) كناية عن موصوف اي عن ذات.

(٣) كناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف أي عن نسبة المعنى إلى الذات.

وهذا بيانها:

الكناية عن صفة

وفيها نصرح بالموصوف، وبالنسبة إليه، لكن لا نصرح بالصفة المكنى عنها، بل بصفة أو بصفات أخرى تستلزمها.

عاد ذو الرمة من سفره ونزل بدار صاحبته، فصدم بخلوها منها، ولم يجد من يدله عليها، وقد عبر عن اكتئابه وخيبة أمله بقوله:

عشية مالي حيلة غير أنني   بلقط الحصى والخط في الترب مولع

أخط وأمحو الخط ثم أعيده   بكفي والغربان في الدار وقع

في هذين البيتين نرى الشاعر ذاهلاً عن نفسه، هاهو ذا منهمك في لقط الحصى والكتابة في الترب ومحو ما كتب، ثم كتابة ما محا ثانية.

وهو لم يعطنا هذه الصورة الخارجية له لنقف عندها، بل لننفذ من خلالها إلى ما وراءها من قلقه ويأسه ومن غلبة الهم على نفسه.

وكبيْتَيْ ذي الرمة في الكناية عن الغم والهم وعن الحزن والألم قول امرىء القيس:

ظللت ردائي فوق رأسي قاعداً   أعد الحصى ما تنقضي عبراتي

وعلى ضوء قول الله تعالى في سورة الكهف: «وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها» نرى صاحب الحديقة وهو يقلب كفيه، وتقليب الكفين صورة خارجية كنى بها الله سبحانه وتعالى عن حالة نفسية هي شدة الألم وعظم الشعور بالندم.

وقول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل   أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فيه الموصوف وهو صاحبة القرط، وفيه نسبة بُعد مهوى القرط إليها، وليس بُعد مهوى القرط مقصوداً لذاته بل لما يلزمه من طول عنقها، وهو مظهر من مظاهر الجمال في النساء، كنى عنه ببعد مهوى القرط.

وقول امرىء القيس:

وقد أغتدى والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فيه كناية عن تبكير الشاعر بالجملة الحالية في الشطرة الأولى.

وكناية عن سرعة الفرس بقيد الأوابد في الشطرة الثانية.

ومن الكنايات عن صفات:

خرساء الأساور: كناية عن السمنة.

الطلاب يتثاءبون: كناية عن الكسل.

السامعون يديمون النظر إلى ساعاتهم: كناية عن الملل.

كأن على رؤوسهم الطير: كناية عن الهدوء وعمق الإصغاء.

فلان لا يدخل من هذا الباب: كناية عن ضخامته.

صارت حفيدتي عروساً: كناية عن أنها كبرت.

ومن الكنايات المستطرفة قول الله تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوَّوْا رؤوسهم» كناية عن عنادهم وكفرهم(٣).

وقوله تعالى «وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو. قل عسى أن يكون قريبا»(٤)

كناية عن استبعادهم ما يسمعون ورفضهم له.

وقوله تعالى «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم، ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان»(٥).

كناية عن البخل في مقولة اليهود «يد الله مغلولة»، وعن الكرم في «يداه مبسوطتان».

والكناية عن صفة ضربان: قريبة زبعيدة.

فالقريبة: هي التي ينتقل الذهن فيها من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائي بلا واسطة بين المعنيين كطويل النجاد كنايةً عن طول القامة، فليس بين طول النجاد وطول القامة واسطة ما.

والكناية القريبة نوعان: واضحة وخفية. فالواضحة هي ما يفهم المعنى الكنائي من المعنى الأصلي فيها بداهةً لوضوح اللزوم بينهما **كقول امرىء القيس:**

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

كناية عن شدة الحظوة وكثرة الثروة، وعن أنها مرفهة مدللة.

وكقول الحماسى:

أبت الروادف والشدى لقمصها   مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهوراً

فقد كنى عن ضخامة عجيزة المرأة وعن نهود ثدييها بارتفاع قمصها عن ظهرها وبطنها حتى أنها لا تمسها.

والكنايات في بيتي امرىء القيس والحماسي واضحة لا تحتاج إلى جهد ذهني في إدراكها.

أما الخفية: فهي التي تحوج في فهم المقصود منها إلى شيء من الأناة والتأمل، لخفاء اللزوم فيها نوعاً ما بين المعنى الأصلي والمعنى الكنائي كقول الفرزدق:

إذا مالك ألقى العمامة فاحذروا   بوادر كفيْ مالك حين يغضب

فقد كنى بالقاء مالك عمامته عن ضيق صدره ونفاد صبره وحدة غضبه، وأيضاً عن جسارته وشجاعته بدليل أنه لم يبال ما يتعرض له المحارب الذي يعرى رأسه من رشقة رمح أو من ضربة سيف، ثقةً بقدرته على حماية نفسه، وفهم هذا كله من عبارة (**ألقى العمامة**) محتاج إلى بصيرة نيرة وعقل فطن.

ومن الكنايات القريبة الخفية قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه في شماله   قد انحصَّ من حسب القراريط شاربه(٦)

في هذا البيت ثلاث كنايات هي:

عريض القفا: كناية عن الغباء.

ميزانه في شماله: كناية عن اهتزاز شخصيته وقلة كفاءته.

قد انحص من حسب القراريط شاربه: كناية عن إشغاله نفسه بالتوافه وانصرافه عن الأمور العظيمة.

وأحسب أن في الكنايات الثلاث شيئاً من الخفاء لكن بدرجة متفاوتة، ولعله في الكناية الأولى أقل منه في الكنايتين الثانية والثالثة.

ونصل إلى الكناية البعيدة وهي ما كثرت فيها الوسائط بين المعنيين الأصلي والكنائي ككثير الرماد كناية عن الكرم، فبين كثرة الرماد والكرم وسائط جمة إذ ينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الحرق، ومن كثرة الحرق إلى كثرة الطبخ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيوف، ومن كثرة الضيوف إلى الكرم.

ومن الكناية البعيدة قول الشاعر:

وما يك فيَّ من عيب فإني   جبان الكلب مهزول الفصيل

في الشطرة الثانية كنايتان بعيدتان.

الكناية عن موصوف

وفيها نصرح بالصفة ونصرح بالنسبة، لكن لا نصرح بالموصوف صاحب النسبة بل نكنى عنه بما يدل عليه ويستلزمه.

هذا امرؤ القيس يكنى عن صاحبته التي كان من أمره معها ما ذكره في بيته قال:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهوبها غير معجل

فـ(بيضة خدر): كناية عن موصوف هو صاحبة الخدر.

وهذا الشنفري يكنى عن الحرب بأم قسطل في قوله:

فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل   لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول.

القسطل الغبار، وأم قسطل هي الحرب، يقول: إن لم ترض الحرب عنى شيخاً فلطالما رضيت عنى شاباً.

ولقد كانت العرب تكنى بالقلائص وهي النوق الفتية عن النساء.

كتب أبو المنهال بقيلة الأكبر الأشجعي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن النساء اللائي كان المجاهدون يخلفونهن:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً   فدًى لك من أخي ثقة إزارى
قلائصنا هداك الله إنا   شغلنا عنكم زمن الحصار

ولما حظر بعض الخلفاء على الشعراء ذكر النساء قال حميد بن ثور:

تجرم أهلوها لأن كنت مشعراً   جنوناً بها ياطول هذا التجرم
ومالي من ذنب إليهم علمته   سوى أنني قد قلت ياسرحة اسلمي
بلى اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمى   ثلاث تحيات وإن لم تكلم

فكنى عمن تغزل فيها بالسرحة، وقد كانوا يقولون لزوجة الرجل سرحته(٧).

وكما كنوا عن المرأة بالسرحة كنوا عنها بالنخلة قال شاعرهم:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

وكنوا عنها بالنعجة قال تعالى: «**إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ**»(٨).

وكنوا عنها بالوديعة في رسالة كتبها أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابه على لسان المعتضد بالله العباسي إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون يطمئنه فيها على ابنته قطر الندى قال: «وأما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك عناية لها، وحياطة بها».

وكان ابن ثوابه فرحاً بوقوعه على هذه الكناية حتى لقد قال للوزير أبى القاسم عبد الله بن سليمان بن وهب: «والله إن تسميتي إياها بالوديعة نصف البلاغة»(٩).

والكناية عن موصوف هي أيضاً نوعان:

نوع يكنى فيه عن الموصوف بمعنى واحد كما في الأمثلة السابقة وكما في قول الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

فقد كنى بمعنى واحد هو (مجامع الأضغان) عن موصوف هو القلوب. والمقصود بوحدة المعنى هنا إنما هو وحدة النوع أو الجنس، وإن كان مثنى أو جمعاً، فمجامع الأضغان وإن كان جمعاً إلا أنه معنى واحد من حيث أنه جنس واحد هو القلوب، وليس أجناساً متعددة، وسيتضح ذلك أكثر بذكر النوع الثاني وهو ما يكنى فيه عن الموصوف بمعنيين أو ثلاثة تتضافر مع بعضها حتى تشكل الموصوف المكنى عنه بها وتحضره في ذهن القارىء أو السامع.

مثال ذلك قول الله تعالى كناية عن الإناث: «**أو من يُنَشَّأ في الحِلْيةِ وهو في الخصام غيرُ مبين**»(١٠).

لم يعبر الله تعالى عن الإناث بمعنى واحد بل بمعنيين اثنين هما: التنشئة في الحلية، والعجز عن الإبانة في اللدد والخصومة، وهذان المعنيان مختلفان لكنهما متكاملان، وهما لذلك يؤديان إلى المكنى عنه بهما في الآية الكريمة وهو الإناث في مقابلة الذكور.

ومثاله أيضاً قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام «**وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ**»(١١) فقد

كنى سبحانه بمعنيين من جنسين مختلفين عن الموصوف وهو السفينة المكونة من الألواح والدسر (جمع دسار وهو المسمار وقيل خيط من الليف تشد به الألواح)(١٢).

ومن الأمثلة التي اصطنعها البلاغيون ليوضحوا بها ما نحن بصدده وهو الكناية عن الموصوف بثلاثة معان قولهم فيما يشبه الإلغاز: «حيّ مستوى القامة عريض الأظفار».

ووكدهم أن تتآزر الصفات الثلاث لتنهض مجتمعة كناية عن موصوف هو الإنسان قالوا: «لأن الحياة وحدها لا تكفي في الدلالة عليه، وكذلك الحياة واستواء القامة لأن التمساح يشارك الحيوان في هذه الصفة، فإنه حي مستوي القامة، ولو قال حي عريض الأظفار (بإسقاط مستوى القامة) لساواه الجمل»(١٣) .

ذكر القزويني هذا المثال وهو يشبه أن يكون حدًّا للإنسان لا كناية عنه، ولو حجبنا كلمة (الإنسان) عنه لكان ــ كما قلنا قبلاً ــ لغزاً، وقد رده السبكي لأنه من وجهة نظره حد، والحد تصريح لا كناية(١٤) .

الكناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف

وفيها نصرح بالصفة ونصرح بالموصوف لكن لا نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف بل نكنى عن هذه النسبة بنسبة أخرى تستلزمها.

نقول: يحل الأدب حيث يحل محمد. وننظر فنجد أننا قد صرحنا بالصفة وهي الأدب، وبالموصوف وهو محمد، لكنا لم نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف أي بنسبة الأدب إلى محمد، وإنما كنيناً عن ذلك بأن نسبنا الأدب إلى حيث يحل محمد أي إلى المكان الذي يحل فيه محمد، ونسبة الأدب إلى المكان الذي يحل فيه محمد تستلزم أو هي كناية عن نسبة الأدب إلى محمد، لاستحالة قيام الأدب بمكان، وضرورة قيامه بإنسان هو في مثالنا محمد.

ويقول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فيسوقه القزويني مثلاً للكناية عن نسبة، ويعلق عليه بقوله: «إنه حين أراد ألا يصرح بإثبات

هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قبة تنبيهاً بذلك على أن محلها (ابن الحشرج) ذو قبة، وجعلها مضروبة عليه لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية، ونظيره قولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه»(١٥).

وكبيت زياد قول حسان يفتخر:

فنحن الذرا من نسل آدم والعرا   تربع فينا المجد حتى تأثلا
بنى المجد بيتاً فاستقرت عماده   علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وقول زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان:

هَنَاك ربك ما أعطاك من حسن   وحيثما يك أمر صالح تكن

وقول الكميت يمدح أبان بن الوليد:

يصير أبان قرين السماح والمكرمات معاً حيث صارا

وقول يزيد بن الحكم يمدح يزيد به المهلب لما كان في حبس الحجاج:

أصبح في قيدك السماحة والمجد وفضل الصلاح والحسب

وقول أبى نواس في مدح الخصيب:

فما جازه جود ولا حلَّ دونه   ولكن يصير الجود حيث يصير

وقد جمع الشنفرى بين سالبة وموجبة من الكناية عن نسبة في بيته المشهور:

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها   إذا ما بيوت بالملامة حُلَّت

في الشطرة الأولى نسب إلى بيتها النجاة من اللوم (نَفَى اللومَ عنه) وقصده نسبة النجاة من اللوم إليها (نَفْيُ اللومِ عنها).

كنى بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية.

والشيء نفسه فعله في الشطرة الثانية لكن بطريقة موجبة، (نَسَبَ اللوم إلى البيوت الأخرى) وقصده (نسبةُ اللوم إلى سكان هذه البيوت). ومرة أخرى نقول: كنى بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية. وهذا هو مفهوم الكناية عن نسبة.

• • •

بقي أن السكاكى أعطى بعض أمثلة الكناية على إطلاقها أي بأقسامها الثلاثة أسماء جديدة قال: الكناية تتفاوت إلى **تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة**.

فإن كانت عُرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً، وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة.... إلى آخر ما ذكره وسنذكره بل سنفصله.

لكن أبادر فأقرر ـ بعد أن قرأت ما قاله وما مثل به لما قاله ـ(١٦) أنه لم يأت بجديد يستحق أسماء جديدة.

فالتلويح: عنده كناية كثرت وسائطها ككثير الرماد وجبان الكلب ومهزول الفصيل.

والرمز: عنده كناية عدمت فيها الوسائط أو قلت مع خفاء اللزوم كمفتول الذراعين وعريض الوسادة.

والإيماء: ويسميه أيضاً الإشارة ـ كناية عدمت فيها الوسائط أو قلت لكن مع وضوح اللزوم كقول أبى تمام يصف إبلاً:

أبيْن فما يزرن سوى كريم   وحسبك أن يزرن أبا سعيد

فإنه في إفادة أن أبا سعيد كريم غير خاف.

وقول البحتري:

أو ما رأيت المجد ألقى رحله   في آل طلحة ثم لم يتحول

فإنه في إفادة أن آل طلحة أماجد ظاهر. وكقول الآخر:

متى تخلو تميم من كريم   ومسلمة بن عمرو من تميم

والأمثلة السابقة كلها كناية ومن السهل توزيعها على ما سبق من أقسامها.

أما التعريض فإني أرى أن ما مثل به السكاكي له ليس كناية، ولندعه هو يتكلم، قال:

«والتعريض كما يكون كناية يكون مجازاً، كقولك آذيتني فستعرف، وأنت لا تريد المخاطب، بل تريد إنساناً معه، وإن أردتهما جميعاً كان كناية».

وأقول: أما كونه مجازاً فنعم وهو مجاز مرسل علاقته اللزوم، لأنه يلزم من تهديد المخاطب الذي اتخذه المتكلم ذريعة لتهديد المؤذى، تهديد المؤذى نفسه من باب (إياك أعني وافهمي يا جارة) لكن لا بد في هذه الحالة من قرينة مانعة من فهم أن التهديد موجه حقيقةً إلى المخاطب.

وأما كونه كناية إذا أرادهما جميعاً فإني أسأل:

على أي أساس يريدهما المتكلم جميعاً علماً بأن المقصود بالتهديد إنما هو المؤذى فعلاً لا المخاطب.

ولنفرض جدلاً أن المتكلم أرادهما معاً بتهديده.

إن الكلام حينئذ يكون حقيقة لا مجازاً ولا كناية.

بقي احتمال أخير هو أن يكون المتكلم قد استعمل العبارة المذكورة استعمالين مختلفين حقيقياً ومجازيا معاً أي بنطق واحد فقط.

وهذا مستحيل عقلاً فضلاً عن أنه مرفوض بلاغةً، لأنه لا ترد عليه ولا يمكن أن ترد عليه في هذا الاستعمال المزدوج علاقة جامعة ولا قرينة مانعة.

ولنصل في إقناع القارىء إلى أبعد من ذلك، نقرر أن التعريض دلالة بالمفهوم لا بالمنطوق، لأنه ـ لغةً ـ خلاف التصريح، واصطلاحاً: إمالة الكلام إلى عُرْض يدل على المعنى المقصود، أي إلى جانب نفهم منه ما يريده المعرِّض تقول: عَرَّضْتُ بفلان إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه به.

ويقول القاضي لأحد المتَّهَمَيْن: أنت بريء ويسكت عن الآخر، وسكوته عنه تعريض به، ومن حقه أن يفهم أنه وحده المتهم ولو لم يقل القاضي ذلك صراحة.

ويدق بابي زائر في منتصف الليل فافتح له وأبادره قائلاً: كم الساعة الآن؟ وسؤالي هذا تعريض بأنه زارني في وقت غير مناسب.

ومن طريف التعريض ما حكاه الرواة ـ والله أعلم بصدقه ـ قالوا:

دخل الفرزدق البصرة ودلف إلى سوق باديتها المعروف باسم المربد، فألفى غلاماً ينشد شعراً

جزلاً يشبه شعره، فسأله: هل كانت أمك تأتي إلى دمشق، وفهم الغلام تعريض الفرزدق بأمه فرد معرضاً بأم الفرزدق: بل أبي.

فهل هذا الحوار كناية؟ بل هل فيما سبق من أمثلة التعريض كناية؟ ونجيب ـ مطمئنين ـ لا، ومعذرة لشيخنا السكاكي.

لكن لماذا الكناية؟

والإجابة مجموعة اعتبارات منها:

(١) أن الكناية أبلغ من التصريح، لأنها في كثير من صورها تعطي الدعوى ودليلها والقضية وبرهانها، والكلام المقرون بدليله أقوى من الكلام العاري عن الدليل والبرهان، يقول عبد القاهر: «أما الكناية، فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح، أن كل عاقل يعلم ـ إذا رجع إلى نفسه ـ أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشك فيه، ولا يُظن بالمخبر التجوز والغلط» (١٧).

أوقع سيف الدولة ببنى كلاب فقال المتنبي:

فَسَّاهم وبسطهم حرير   وصبحهم وبسطهم تراب

وفي قوله هذا كنايتان الأولى (وبسطهم حرير) وهي كناية عن أنهم سادة أعزة منعمون بدليل أن بسطهم حرير، والثانية (وبسطهم تراب) كناية عن أنه أذلهم بدليل ما هم عليه من افتراشهم التراب.

وقال آخر:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى   لرملة خلخالاً يجول ولا قُلبا

فكنى عن سمنة رملة وامتلائها بتوقف خلاخيلها وأساورها عن الجولان، لكأنه قال: إنها ممتلئة الأطراف بدليل ثبات خلاخيلها وأساورها في أماكنها من ساقيها ومعصميها.

(٢) أن الكناية أسلوب حضاري مهذب.

تقول لوالد فتاتك: جئتك طالباً القرب منك فتكون أكثر رقة وحشمة مما لو صرحت فقلت: جئت طالباً الزواج من ابنتك أو نحو ذلك.

وقريب من هذا قول الفتاة التي سئلت: عن أمها؟ فكنّت بقولها: ذهبت تشق النفس نفسين، فهو أجمل وأدخل في باب الأدب بمعنييه الفنى والاجتماعي مما لو قالت: ذهبت تولِّد فلانة زوجة فلان.

وأكثر من ذلك تمكن الكناية صاحبها من أن يقول المستهجن من المعاني بالمهذب من الألفاظ، يقول ابن سنان: ومما يستحسن من الكناية قول امرىء القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا   ورضت فذلت صعبة أي إذلال.

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة(١٨).

والقرآن الكريم فيما نحن بصدده وفي غيره المثل الأعلى.

فمن كناياته المعجبة قوله تعالى: «ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البسط»(١٩) فهو كناية بل دعوة إلى الوسط الذهبي في الاقتصاد والمال وهو الاعتدال.

وقوله تعالى «ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسلُ وأمه صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام»(٢٠). كناية عما لا بدَّ منه لمن يأكل ويشرب(٢١).

أما قوله تعالى: «وقد أفضى بعضكم إلى بعض»(٢٢) وقوله تعالى: «أَوْلامستم النساء»(٢٣). وقوله تعالى: «أُحل لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم ؛ هن لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن»(٢٤) وقوله تعالى: «نساؤكم حرث لكم فأْتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم»(٢٥).

فهذه كلها كنايات بارزة تطرح مضامينها طرحاً فذاً فيه الفنية والجمالية وفيه الطرافة والحشمة.

وتستشرف الآية الأخيرة التداعي الطبيعي بين الحرث والإنجاب في التربة الحقيقية والحرث والإنجاب في التربة الإنسانية مع ما يستتبعه هذا ويستتبعه ذاك من زينة الحياة التي هي المال والبنون.

والحق أن الكنايات القرآنية نأتي في المقدمة إذا عددنا الدقائق الفنية التي أهّلت القرآن الكريم لأن يكون معجزاً بنظمه.

فمن الفصاحة والبلاغة أن تضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها، ومن وضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها أن تكنى بها عما لا يحسن التصريح به من قول أو فعل.

(٣) في الكناية وبالكناية يقول الإنسان ما يقول دون أن يكون لأحد عليه سبيل.

يقول مدير المدرسة للمدرس الذي يضرب تلاميذه: (يدك طويلة يا فلان) وهي كناية عن أشياء منها ما قصده مدير المدرسة، ومنها ما هو أشنع وأوجع. ثم منها ما هو مدح يعتصم به مدير المدرسة لو انفتح عليه الباب لعتاب أو عقاب.

ومن الطرائف التي سمعتها ما عقب به سائق حافلة على قول أم لابنتها: (اطلعي يا روحي). فقد أسعفته بديهته بأن يقول لها: (اطلعي يا أختي وبعد طلوعك تطلع روحك) والتحليل البلاغي لمقولته يقف بكلمة (روحك) فيها عند الكناية أو التورية، وبين قوسين أقول: إنهما قريب من قريب؛ فنحن في الكناية نورِّي بالمعنى الأصلي عن المعنى الكنائي، وفي التوربة نكنى بالمعنى القريب عن المعنى البعيد. وقديماً قال السكاكى: «أكثر متشابهات القرآن من التورية»(٢٦).

وسواء كانت (روحك) كناية أو تورية فقد أتت عبارة السائق في صورة دعاء على الأم بطلوع روحها أي بموتها، ولولا كلامها قبلاً لساءت العاقبة فعلاً، لكنه تحصن بما قالت، فقال ما قال.

(٤) في الكناية تقوية للأداء الأدبي بإخراج الأمور المعنوية في صورة أشياء مادية تدركها الحواس.

كنى نصر بن سيار عما استشعره وتوقعه من اندلاع الثورة على بني أمية واجتياح ملكهم فقال:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

وفي قوله هذا كناية بوميض النار عما توقعه من هزيمة واندحار.

(٥) بالكناية وفي الكناية أستطيع أن أجبه بالرفض، أي قول لا أصدقه دون أن أجرح شعور صاحبه.

قال المتنبي مكذباً صاحبته لكن في رفق ورقة:

تشتكي ما اشتكيت من ألم الشوق إليها والشوق حيث النحول يقول ابن سنان: «كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية»(٢٧) وصدق.

الهوامش

(١) الايضاح جـ ٥، ص ١٨٨ـ١٨٩، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م القاهرة وبغية الايضاح لتلخيص المفتاح تحقيق عبد المتعال الصعيدي جـ ٣ ص ١٥٥ ١٣٦٤ هـ/١٩٤٤ م القاهرة.

(٢) المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الحقيقي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي لتلك الكلمة، والاستعارة التصريحية هي ماصرحنا فيها بلفظ المشبه به في مكان المشبه، والأصلية هي ما جرت في اسم جامد يصدق على كثيرين حقيقة كثعلب أو تأويلاً كحاتم ويستوي أن يكون الاسم الذي جرت فيه الاستعارة اسم ذات كما سبق أو اسم معنى كالحياة والموت، والمطلقة هي ما اقتصر فيها على قرينتها فلم تقترن بشيء يلائم المشبه أو المشبه به.

(٣) المنافقون الآية (٥).

(٤) الإسراء الآيات: ٤٩ـ٥١.

(٥) المائدة الآية ٦٤.

(٦) اخضل شاربه: نحل.

(٧) التصوير البياني د. محمد أبو موسى ط ٢، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م القاهرة، ص. ٤١٠ـ٤١١.

(٨) سورة ص. الآية ٢٣

(٩) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ١٥٦ تحقيق عبد المتعال الصعيدي ١٩٦٩ م القاهرة.

(١٠) الزخرف: ١٨.

(١١) القمر: ١٣.

(١٢) أساس البلاغة ص ١٣٠ تحقيق عبد الرحيم محمود ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م القاهرة.

(١٣) التصوير البياني ص. ٤١٩.

(١٤) الايضاح شرح وتعليق خفاجى جـ ٥ ص. ١٩٤، والتصوير البياني ص. ٤٢٠.

(١٥) الايضاح جـ ٥ ص. ٢٠٣ وابن الحشرج هو عبدالله بن الحشرج كان واليا على نيسابور من قبل بني أمية.

(١٦) انظره في بغية الايضاح جـ ٣ ص. ١٦٧ـ١٦٨ وفي مفتاح العلوم ص ١٩٤ الطبعة الأولى بمصر ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م وفي الايضاح شرح وتعليق خفاجى جـ ٥ ص. ٢١٠.

(١٧) دلائل الإعجاز ص ٥٧ـ٥٨ طبعة سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م دار المعرفة بيروت تحقيق السيد محمد رشيد رضا.

(١٨) سر الفصاحة ص ١٥٦.

(١٩) الإسراء: ٢٩.

(٢٠) المائدة: ٧٥.

(٢١) لا يرى ابن سنان في هذه الآية ما رآه بعض المفسرين لها من أنها كناية عن الحدث، بل يرى أن الكلام فيها على ظاهره، لأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً، كذلك لا يجوز أن يكون طاعماً، وانظر سر الفصاحة ص. ١٥٨.

(٢٢) النساء: ٢١.

(٢٣) النساء: ٤٣.

(٢٤) البقرة: ١٨٧.

(٢٥) البقرة: ٢٢٣.

(٢٦) الايضاح جـ ٦ ص. ٤٢.

(٢٧) سر الفصاحة ص. ١٥٧.